مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

محورية الأمن المائي ضمن تحصينات "مزغان" خلال الفترة ١٥٤١ – ١٥٤٨م

شكيب الحباشي
باحث دكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة شعيب الدكالي الجديدة – المملكة المغربية

مُلَخّص

شكل توسيع وتحصين قلعة مزغان على ساحل المحيط الأطلسي، الحلّ الأمثل أمام البرتغال للحفاظ على ميناء "مزغان"، بعد أن اضطروا لإخلاء أسفي وأزمور بدون معارك. وقد كان الجلاء عن الموقعين نتيجة مباشرة لتنامي قوة الأشراف السعديين بالمغرب الأقصى، حيث تمكنوا من إحراز تفوق واضح من خلال دخولهم حصن سانتاكروز بالسوس عنوة سنة ١٥٤١م. على أنّ التحصينات التي عرفتها مزغان والتي دامت خلال الفترة ١٥٤١م – ١٥٤٨م لم تقتصر على ما هو حربي فقط من خلال تشييد الأسوار والأبراج وحفر الخنادق حول القلعة، بل شملت أيضًا تأمين القلعة مائيًا من خلال تحويل قاعة للأسلحة والمؤن إلى خزان مائي، نظرًا لعدة اعتبارات منها ما هو طبيعي يخص جيولوجية الموقع بشكل خاص والتي ساهمت في عدم توافر ماء عذب كافي بالموقع وما هو مناخي يخص مجال تواجد قلعة "مزغان" عمومًا الموسوم بقلة التساقطات، وعدم انتظامها، وبنيوة الجفاف، الأمر الذي دفع إنسان المنطقة الى التكيف مع المجال من خلال مجموعة من الوسائل أهمها خزن المياه في أيام الرخاء، لاستعمالها في أوقات الشدة. وسنحاول مقاربة هذا الموضوع من خلال تتبع مراحل توسيع الحصن وكذا رصد الاعتبارات التي أدّت إلى تحويل قاعة الأسلحة إلى خزان مائي، وفي الأخير إلى الوسائل والتقنيات التي اهتدى إليها المهندسون والحكام من أجل الحرص على تأمين تزويد الخزان والقلعة بالماء.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٨ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ٠٩ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

مزغان؛ البرتغال؛ السعديون؛ حصار؛ آبار؛ خزان

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.340693

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

شكيب الحباشي. "محورية الأمن المائي ضمن تحصينات مزغان خلال الفترة ١٥٤١ – ١٥٤٨م".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ٩٧ – ١٠٥.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: chakibhabachi728@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّوريةُ كان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَة

تميزت سنة ١٥٤١م بحدث بارز، تمثل أساسًا في دخول الأشراف السعديين لسنطاكروز عنوة والذي كان من نتائجه المباشرة جلاء البرتغاليين عن أزمور وأسفي دون معارك، بعد أن تردّد الملك مبكرًا ومنذ سنة ١٥٢٩م. في التخلي عنهما لضخامة تكلفة المحافظة عليهما، على الميزانية البرتغالية المتدهورة أصلاً.[١] ويقرر الاحتفاظ بحصن مزغان، على أن يتم توسيعه وتحصينه بشكل يستجيب للمخاطر المحتملة بفعل تنامي قوة الأشراف السعديين. كما شكلت أيضا سنة ١٥٤١م بداية توافد مهندسين ذائعي الصيت على المدينة من أجل الوقوف على التصاميم والأشغال،[٢] لتمتد عملية توسيع الحصن وتحصينه بأبراج وأسوار وخنادق إلى سنة ١٥٤٨م.[٣] ويبدو أن خصوصية مناخ دكالة عمومًا، وموقع مزغان الصخري فرض على البرتغاليين البحث في تأمين حصن مزغان مائيًا، لتفادي أي حصار ذي طبيعة مائية، سيما وأن استخدام الماء لم يكن خافيًا في حروب المنطقة. حيث سيلاحظ خلال نفس الفترة تحويل قاعة الأسلحة والمؤن في الحصن السابق لمزغان إلى خزان لمائي.[٤]

وفي علاقة بالماء أيضًا سيتم الإشغال على توفير قناة آمنة للمياه، عبر مسار تحت أرضي، من بئر وفيرة المياه وُجدت خارج أسوار القلعة. وسنحاول مقاربة هذا الموضوع من خلال تتبع مراحل توسيع الحصن وكذا رصد الاعتبارات التي أدّت إلى تحويل قاعة الأسلحة إلى خزان مائي، وفي الأخير إلى الوسائل والتقنيات التي اهتدى إليها المهندسون والحكام من أجل الحرص على تأمين تزويد الخزان والقلعة بالماء.

يبدو أن اسم "مزغان" ظهر لأول مرة لدى البكري في كتابه نزهة المشتاق[٥] في القرن السادس الميلادي، كما جاء بصيغة "مازيغن" لدى الإدريسي،[٦] وفي مخطوط ابن عبد العظيم الأزموري[٧] كما ورد ذكر "مزغان" لدى مارمول كاربخال، حيث ذكر وجود برج عتيق لميناء قديم[٨] والذي من الممكن أن يكون نفسه البرج الذي أدّى تصغيره إلى تسمية المكان بالبريجة.

وعلى العموم تبقى "مازيغان"، أو "مزغان" تسمية محلية تحيل إلى المغاربة الأمازيغ الذين استوطنوا المنطقة والتي عجّت دكالة بأسماء عديدة لقرى ومدن تعود تسمياتها إلى أصول أمازيغية. كأزمور وتيط، وأيير ومرامر وغيرها.[٩] وعن مدلول هذا الاسم، أورده الأستاذ شفيق، بمعنى ذات الرحى بعد أن حوّل مزغان إلى" م – ازركان" وهو جمع "ازرك".[١٠] وسأضيف في هذا الإطار معاني أخرى ذات صلة بالماء أعطيت لكلمة مزغان:

المعنى والذي نظن أنه يعود للسان الدارج المغربي "ما – سخان "، [١١] Elma’ skhon الأول هو "ما- زغان" بتحريف الخاء إلى حرف الغين. والذي قد يعود أيضًا للسان الدارج [١٢]L’eau -tombé والمعنى الثاني " لما- ازكا"، المغربي بمعنى استقر في الأرض وتبت على الأرض، والتي قد تعني الماء المستقر أو الماء المخزن، مما قد يحيل إلى ماء النطفية. أو ماء المطر الذي يسقط من السماء ويستقر في الأرض وهو ما ذهب إليه جوزيف كولفن (الماء الساقط لأنه ليس هناك ماء بالمدينة غير ماء الآبار).[١٣]

معنى أخير أورده جوزيف كولفن أيضًا: ويعني الماء النائم أو الماء الساكن وقد يحيل المعنى إلى الركود[١٤] L’eau dormante ويُستفاد من هذه المعاني أنه بالإضافة الى اعتماد هذه المعاني في الغالب على ما يمكّنه اللسان الدارج العربي من معاني وهو الأمر الذي لا يستقيم، نظرًا لقِدم اسم مزغان والذي يعود لفترة استقرار الأمازيغ بدكالة. ولعلّ الواقع المائي الذي كانت تعيشه مزغان المتمثل في اعتمادها على مياه الآبار ومياه الخزّانات، أدّى إلى بروز معاني ذات صلة بالماء، ماء مستقر، ماء ساقط، ماء نائم وربما راكد يصبح راقدًا باللغة العربية الفصحى ويترجم إلى الفرنسية بـ L’eau dormante

أولاً: مراحل توسيع مزغان خلال الفترة (١٥٠٢ – ١٥٤١)

إن احتلال مزغان كان نتيجة صدفة، حيث قادت عاصفة هوجاء (أورد جوزيف كولفن الذي انطلق من Emanuel George de Mello إيمانويل جورج

دي ميلو لمهاجمة أسطول لشبونة سنة ١٥٠٢ – تاركًا على مسافة ٣٥ كلم من تطوان لتحمل الرياح السفينة Elboreja[١٥] القبطان قبالة برج مهجور –البريجة – ولعلّ البريجة المقصودة هنا، حسب الناصري (هي ما كان يسمى برج الشيخ ولا زال مسمى بهذا الاسم حتى الآن).[١٦] فيدفع هؤلاء إعجابهم بالميناء بترك حامية صغيرة بما تحتاجه من مؤن وأسلحة ويعود الأسطول إلى لشبونة ليقنع الملك ببناء قصر قوي في ذلك الموقع*. بيد أن هذه الرواية تفندها وثائق تاريخية أوروبية تثبت أن البرتغاليين كانوا يتاجرون مع سكان مزكان على الأقل ابتداءً من سنة ١٥٠٠م. كما لا يعقل كما يقول أبو قاسم الشبري ألا يكون البرتغاليون قد عرفوا مزكان وهم يتردّدون على أسفي وأكوز وموكادور وأكادير وماسة[١٧].

وبقبول الملك امانويل لوترني* للمشروع تم الشروع في بناء الحصن من أربعة أبراج من بينها برج البريجة في الشرق وعن تاريخ هذه العملية يقول أبو شارب (ومعلوم أن البرتغاليين وجدوا القرية مخربة خريف ١٥١٣... وشرع البرتغاليون في تحصين القرية صيف ١٥١٤م. وكانت التحصينات بسيطة وكان البرج البرتغالي صغيرًا ومربع الشكل ٤٧م–٥٧م).[١٨]

ولقد اتفقت المصادر التاريخية لهذه الفترة على أن كل ما كان يوجد داخل السور هو عبارة عن قاعة شاسعة مخصصة للأسلحة تفصلها عن السور مخازن الحبوب والعتاد التي كانت تحيط بالقلعة من جهاتها الثلاث. غير أن تضافر مجموعة من العوامل أهمها تَقوّي شوكة السعديين أثَر بشكل كبير على البرتغاليين، فقد (كان الشيخ رحمه الله ماضي العزيمة قوي الشكيمة... فتح حصن النصارى بسوس، يعني حصن فونتي، بعد أن قاموا فيه ٧٢سنة)،[١٩] (حتى تركوا اسفي وأزمور من غير قتال)،[٢٠] و(تم الاحتفاظ بمازيغن التي عرفت تحصينات ضخمة سنة ١٥٤١م)،[٢١] وسيتم تحويل الحصن الأصلي إلى خزان للمياه. ولا نعرف بالضبط تاريخ بداية الأشغال بمازغان بعد الجلاء عن أسفي وأزمور، بل كما لاحظ روبير ريكارد بدأ ظهور أسماء معروفة بمدينة مزغان في مجال الهندسة المعمارية منذ١٥٤١.[٢٢] وجواو Joao de Casthilo وسيتكلّف بأعمال بناء مزغان المهندسان جواو دي كاستيلو، كما سيعمل الملك البرتغالي يوحنا الثالث على تعيين عسكري Joao Ribeiro ريبيرو[٢٣] Louis Leriero تمتّع بصيت كبير وتجربة عسكرية مهمّة حاكمًا لمزغان.

ثانيًا: تخزين المياه وتأمين استدامتها لتفادي حصار العطش خلال الفترة (١٥٤١ – ١٥٤٧م)

١/٢–دواعي تحويل قاعة الأسلحة الى خزان مائي

سبق وأشرنا أنه تم تحويل الحصن الأول لمزغان الى قلعة على شكل رباعي محاط بخمس أبراج، حيث تم تجميع ما تبقى من قوات الملك خوان الثالث بكل من أسفي وأزمور وتم تحويل قاعة الأسلحة. إلى خزان مائي بعد ١٥٤١م،[٢٤] وعن شكل هذا الخزان والذي هو عبارة عن ثلاث قاعات يحيط بها السور الخارجي، فيصفها الشبري كالتالي (وهذه القاعات الثلاث تحيط بفناء داخلي مربع أو يكاد (– ٣٤,٦٠ – ٣٣,٦٠ – ٣٤,٦٥ – ٣٣,٥ م) نصفه تحت الأرض ويحمل سقفه ٢٥ عمود من ١٢ مربع و ١٢ دائري وآخر امتزج فيه الدائري بالمربع والأعمدة الضخمة كلها من الحجر المنحوت تعلوها تيجان مربعة بسيطة تقع عليها عوارض المحذبات التي تحمل قباب السقف بالأجور المطهي[٢٥]) وتبلغ سعة المسقاة ما بين ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ برميل من الماء.[٢٦]

لقد أملت مجموعة من الاعتبارات وجوب توفير خزان مائي بمزغان أو بالأحرى وجوب تحويل قاعة الأسلحة في الحصن الأول إلى خزان مائي*، اختلط فيها بين ما هو أمني استراتيجي له علاقة بظروف الصراع البرتغالي الدكالي خصوصًا والمغربي عمومًا وما هو جيولوجي طبيعي أثّر على وفرة الماء في الموقع، بالإضافة إلى خصوصية منطقة دكالة المناخية، التي تعارف أهلها على اعتماد مجموعة من التقنيات، أهمها خزن الماء بنطفيات، لبنيوية الجفاف في المنطقة. فبخصوص ما هو استراتيجي أمني، يمكن أن نشير إلى أن البرتغاليين تعرّضوا للهجوم وللحصار مرّات عديدة حيث يمكن أن نورد بعض الأمثلة لذلك، فقد أورد مارمول أنه تمت محاصرة مدينة أسفي بعد أن استولى عليها نينيو فيرناندیز، وذلك بتحريض من الفقهاء والذين قاموا بتطويق المدينة في الوقت الذي حالت فيه

المساعدات من قشتالة والبرتغال دون انتصار القبائل.[٢٧]

كما عزم الناصر الوطاسي على محاصرة أزمور ليتراجع عن ذلك بعد واقعة الجمعة ببولعوان، وضرب الأعرج السعدي حصارًا على أسفي سنة ١٩٣٤م، كما ضرب أخوه حصارًا على أكادير في السنة التي قبلها [٢٨] كما حاصر سانتكروز لمدة ٦ أشهر ممّا أدّى إلى اقتحامها في ١٢ دجنبر ١٥٤١م، ذلك الاقتحام كان السبب المباشر لإخلاء أسفي وأزمور بعد أن تردّد يوحنا الثالث كثيرًا في شأن ذلك. وبعد أن ظفر السعديون بأزمور (نادوا بالجهاد إلى البريجة، وأمروا الناس بالاستعداد إليها وأن يكونوا على أهبة للجهاد).[٢٩] على أنّ المحاولات المتكررة للحصار، كانت تقتضي استراتيجيًا وأمنيًا الاكتفاء الذاتي من مادة حيوية كالماء بكميات مهمة تفي لأيام إن لم يكن شهور. ولعلّ السعة العالية للخزان المائي كانت إجابة مستوفية لهذا الهاجس. والواقع أن مسألة الحصار قد تعدّدت بعد ١٥٤١م، ففي سنة ١٥٤٧م أمر الشريف أحد قواده وهو حمو داوود أن يقيم مع ٦٠٠٠ من الجنود المسلحين بالرماح قرب مزيغان،[٣٠] كما حاصر مزكان المرابط سيدي محمد العياشي سنة ١٦٠٤م وعاود الهجوم عليها سنة ١٦٤٠م.[٣١]

وفي ذلك يقول الإفراني (وضيّق عليهم أشد تضييق حتى منعهم من الرعاية والحرث).[٣٢] إلى حدّ تواجد مركز لتجمع المجاهدين الدين يهاجمون البريجة على بعد ست كيلومترات ونصف في جنوبي شرق المدينة، والذي كان بمثابة مدينة حقيقية دعيت بفحص الأزموريين.[٣٣] كما حاصرها عبد الله الغالب واتُّهم أنه باعها (ولم يحدث في أيامه شر من بيعه بادس والبريجة بعدما أخذها القايد علي بن ودة و دخل إلى أبراجها... فأتاه رسول السلطان أن يتخلى عنها)،[٣٤] بالإضافة إلى الحصار الأخير الذي قام به السلطان محمد بن عبد الله الذي تم من خلاله تحرير المدينة.[٣٥]

الاعتبار الثاني والذي يتعلق بالخصوصية المائية لمنطقة دكالة، فقد أورد ابن قنفد أن دكالة ليس بها ماء ولا عين إلا آبار طيبة،[٣٦] كما أورد البرتغالي المجهول أنّ الدكاليين اعتمدوا على عدد من الحفر، تسمى خزانات، حيث يُحتفظ فيها بمياه الأمطار.[٣٧] هذا الارتباط بمياه المطر سيُأثر لا محالة على حياة الإنسان نظرًا لتواتر سنوات الجفاف. إلى حدّ أن الاستقرار وعدم اللجوء الى الرحيل كان رهينا بما تَمّ خزنه من ماء، فقد أورد ابن الزيات رواية في باب كرامات الشيخ الصالح أبي وكيل ميمون بن تاميمونت، أنه حدّثه غير واحد (أن المطر احتبس في وقت نزوله وقلّت المياه، فكان الناس يرحلون من بلادهم إلى مواضع المياه، فأمر أبو وكيل منيمون قومه أن يستقوا من الحفرة التي أعدها لماء المطر، فقالت له زوجته: ما هذا الذي تفعله؟ أتريد أن يتم الماء فترحل كما رحل الناس؟ فأعرض عن قولها. فلما نفد ماؤها... قالت: انظر في الرحيل فقد نفد ماؤنا).[٣٨]

وبالفعل فقد عرفت المنطقة في القرن السادس عشر الميلادي، جفافًا سنة ١٥١٧ و١٥١٩ وآخر خلال موسم ١٥١٩ –١٥٢٠ وآخر سنة ١٥٤٠ ولا شك أنه كان للجفاف نتائج خطيرة جدًا على السكان ومواشيهم لاعتمادهم في شربهم على مياه المطر.[٣٩] حيث سيفطن البرتغاليين إلى أهمية تلك التقنيات خصوصًا منها ما يهمّ خزن المياه، فعمدوا إلى محاولة الاستفادة من تجربة الدكاليين في التكيّف مع مجال دكالة.

ولعلّ تضافر هاذين الاعتبارين بالإضافة إلى حوادث التاريخ الماضي القريب للبرتغاليين بدكالة، كاستعمال الماء في الحرب، كردّ جيش سلطان فاس على عقبه بعد أن انهزمت مقدمته ببولعوان بنواحي دكالة و(أصبح تقدمه عسيرًا لكون البرتغاليين كانوا قد أغلقوا أفواه جميع الآبار)،[٤٠] أو كرفض رجوع عبدة إلى أراضيها كما كتب قبطان أسفي لقلة الماء،[٤١] أو تلك الصورة الأوضح عن معرفة البرتغاليين لأثر النقص في الماء والتي تتمثل في الإشارة التي وردت عن سفينة أتت محملة بالماء الصالح للشرب من البرتغال مُتّجهة إلى أسفي،[٤٢] كل ذلك سيجعل مشكل الماء في صلب الاهتمام الأمني البرتغالي عمومًا، وفي صلب توسيع حصن مزغان خصوصًا. إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن شوكة السعديين تقوّت بشكل بيّن، واحتمالات محاصرة مزكان بعد ١٥٤١م واردة بشكل كبير.

والاعتبار الأخير الذي نرى أنه أيضًا كان حاسمًا في العمل على توفير خزان مائي هائل بمزكان الثانية، يخصّ جيولوجية الموقع الصخري لمزغان الذي كان قليل الماء أو

أنه كثير الملوحة بفعل فرشته المائية البحرية. وعن صخارية الموقع يقول ميشو بلير (أما في غرب أم الربيع فإن الشاطئ الأطلسي (...) فهو بعد أن يكون رمليًا تحيط به الكثبان بين أزمور والجديدة يصبح صخريًا عندما يتجه نحو الجنوب الغربي قاطعًا الجرف الأصفر).[٤٣] و يقول عن موقع مزكان أبو شارب – (أنه صخري و مرتفع)[٤٤] وهو الأمر الذي لم يختلف فيه معه مجموعة من الباحثين الذين أجمعوا على أن موقع مزكان عبارة عن جرف صخري حقّق أهمية كبيرة على مستوى المناعة ضد هجمات الدكاليين، فقد تساءل جوزيف كولفن عن الإمكانيات التي يتيحها بناء مزكان على صخرة بحرية،[٤٥] كما أشار ويزجيربر أكّد أن مزغان تستوي على نقطة صخرية.[٤٦]

غير أنه إذا كان الموقع يحقق مسألة المناعة ضد الهجمات ويحقق إمكانية الرسو بشكل جيد إلى درجة اعتباره أحسن ميناء في العالم،[٤٧] فإن عيبه الوحيد هو خصاصه المائي،[٤٨] ذلك العيب (الذي لا يمكن فعل شيء إزاءه، وهو الأمر الذي جعل من الماء سببًا للاختناق، لأن المغاربة كانوا يقطعون الماء عن القلعة.. الأمر الذي سيفرض حفر آبار داخل القلعة وخصوصًا إعداد المسقاة بعد ١٥٤١م).[٤٩] ولعلّ الطبيعة الصخرية للموقع والفرشة المائية البحرية تجعلنا نظن أنه من الصعب العثور على آبار توفر مياه عذبة داخل القلعة وهو ما ذهب إليه جوزيف كولفن مضيفًا (حيث إن الآبار لا تمكّن إلاّ من مياه مالحة فقاعة الأسلحة ذات السعة الهائلة، والمقاومة للماء بفعل سمك ومتانة جدرانها، بدا تحويلها إلى خزان مائي أمرًا مثاليًا).[٥٠] إذا كان تحويل قاعة الأسلحة إلى خزان مائي أمرًا مثاليًا، فمسألة إمداده بالماء ستفرض الاستعانة بآبار خارجية. وبالفعل فسيتم البحث في إمكانية تزويد المسقاة بالماء من خارج القلعة، وهذا ما سنحاول تتبعه فيما سيأتي.

٢/٢- مد القنوات وتخزين المياه بمزغان

أورد الرحالة موكي الذي زار مزغان في سنة ١٦٠١م وجود خزان عريض بداخل القلعة له قدرة على استيعاب ٢٠ ألف مكيال من الماء محفور وسط الساحة، كانت تستعمله الساكنة في شربها[٥١] وقد أورد أنه وُجدت في أعلى الخزان فتحة دائرية بقطر ٣متر و٥٥ سنتم[٥٢] وضعت عليها حراسة [٥٣] ، ويبدو أن الحراسة كانت لدَرأ أي عارض قد يُفسد مياهها، وقد يفيد أيضًا أنّ الفتحة كانت تفيد في استغلال مياه الأمطار في ملء الخزان بالماء ولو جزئيًا، غير أنّ المؤشرات التاريخية تفيد أن جزءَ آخر من المياه وعلّه الأهم كان يأتي من بئر وجدت خارج القلعة، فقد أورد مارمول كربخال في هذا الصدد (أن مزكان يحرسها المحيط من جهة و خندق عريض عميق من جهة أخرى يرتفع ماؤه مع البحر وفي داخله بئر ماؤه عذب يحيط به سور من حجر في غاية الارتفاع والنتوء، تأتي إليه السفن للتزود بالماء العذب).[٥٤] وقد أورد هنري دي خورخي، حيث كان يحاول إقناع الملك بغزو المغرب، استراتيجية مائية تتمثل في وضع سياجات في أماكن توفير المياه (وفي كل منبع للمياه تم احتلاله يوضع حصن من الطوب وتكون هذه الحصون على شكل أبراج)،[٥٥] ولا نستبعد أن تكون هذه التقنية مأخوذة عن تأمين الآبار بمزغان.

وتقدم لنا هاتان الروايتان مجموعة من الملاحظات:

الملاحظة الأولى: تعزز ما ذكرناه سابقًا أن ماء الآبار داخل الحصن لم يكن بالعذوبة الكافية، أو على الأقل لم يكن كافيًا لسد كل حاجيات ساكنة مزكان.

الملاحظة الثانية: أن تلك البئر كانت مسوّرة بشكل منيع بالإضافة إلى وجودها داخل خندق* لكي لا يتمكّن المهاجمون من قطعها عن القلعة أو بتسميمها، فقد أورد موكي أن المغاربة في محيط مزكان كانوا ينهبون البساتين ويسمّمون الآبار، إلى درجة وصف محيط مزكان بصحراء قاحلة.[٥٦]

الملاحظة الثالثة: أن التزوّد بالماء كان يتم عن طريق قوارب تأتي لأخذ الماء من ذلك الموقع الحصين، والذي يبدو أنه لن يكون يسيرًا في حال الهجوم ما على القلعة، فلا يمكن أن نتصور سفنًا تأتي للتزود بالماء أثناء الحصار أو الهجوم على القلعة بهذه السهولة. وعلى اعتبار رواية مارمول كانت في حوالي ١٥٧١م، فقد نفترض خفوت الهجومات الرسمية على مزغان بفعل الصراع حول الحكم من جهة وأيضًا بفعل توجيه البوصلة نحو الشمال في محاولة للسيطرة على المغرب الأقصى ككل، فقد أورد عبد الله العروي أنه ﴿في الحين ذاع صيت السعديين، ورجحت كفتهم على الوطاسيين،

استفاد محمد الشيخ من الوضع الجديد، فتغلب على أخيه أحمد الأعرج ودخل مراكش سنة ١٥٤٥/٩٥١ حيث بويع بالإمامة على المغرب الأقصى وانفتحت أمامه الطريق لغزو شمال المملكة﴾[٥٧]. كم أورد ميشو بلير أنّه (قد تميز عهد السعديين بالجهاد إلى أن تبوأ أحمد المنصور العرش في ١٥٧٨م، وإذ ذاك اختفى تاريخ دكالة المحلي في خضم الأحداث، لأن الفوضى أصبحت ضاربة أطنابها بالمغرب، وأخذ المتنافسون على العرش يبحثون عن المساندة الأجنبية، فمنهم مَنْ كان يطلبها لدى الأتراك، ومنهم مَنْ كان يطلبها من البرتغال).[٥٨] مما يدفعنا للجزم أنه كلما سمحت الظروف بذلك، كانت القوارب تخرج للتزود بالماء من خلال بئر خارجية كما ورد لدى جان موكي، غير أنه في ظروف الحصار قد يبدو الأمر مستحيلاً على أن المناوشات كانت تصل إلى حدود أبواب المدينة.

وهو ما سيدفع في نظرنا إلى تفكير لشبونة في إمداد الماء من خلال قناة تحت أرضية إلى القلعة منذ بداية تشييد مزغان ١٥٤١م، الأمر الذي تعززه مجموعة من الرسائل بين لشبونة ومزغان. حيت تُظهر رسالة بعثها حاكم مزكان لويس دو لوريرو ليوحنا الثالث بتاريخ ١٥ دجنبر ١٥٤٢م ردًا عن استفسار الملك يوحنا حول مآل السرداب التحت أرضي الذي كان قد أمر بحفره لنقل مياه البئر إلى القلعة، في حين يفيد جواب الحاكم لوريرو أن ذلك السرداب، كان يمكن أن يكون جاهزًا في تاريخ الرسالة، لو كان الحاكم قد توصل بحاجيات سبق أن طلبها من الملك في رسالة سابقة، ومنها الخشب لاستعماله في أقواس قبو السرداب.[٥٩] ولعلّ السرداب المقصود، هو ذلك السرداب التحت أرضي الذي ستمر من خلاله قنوات إمداد المياه إلى القلعة. وقد أورد كولفن معلومات حول تلك البئر بقوله (أنه قد تم حفرها سنة ١٥١٣م، وأطلق عليها بئر الدوق، وقد سمي بذلك لافتتاحه أثناء زيارة دوق Bragance).[٦٠]

كما تفيد نفس الرسالة أنه سيتم اعتماد مضخات لرفع الماء من الخندق، تلك المضخات كانت ضمن أدوات أخرى متضمنة في لائحة أرسلت قبل تاريخ ١٥ دجنبر١٥٤١م.[٦١] ولعل الخندق المعني في الرسالة في نظرنا هو ذلك الخندق الذي كان يحيط بالقلعة، والذي تغمره مياه البحر والذي أورد كولفن أن عرضه كان يصل إلى ٤٨ متر وعمقه إلى ٣ أمتار.[٦٢] ويستفاد أيضًا من رسالة Jean de casthilo أن الملك تباحث مع جان دي كاستيلو في شأن إمداد القناة بمياه آبار أخرى[٦٣] غير أن الحاكم كان له رأي آخر على اعتبار أن تلك الآبار كانت في مستوى ماء أقل من القناة، وكون البئر التي يشتغلون عليها تتوفر على مياه كافية، وكونه سيعمل على إنشاء خزّانات داخل المدينة والتي ستكلف أقل بكثير من اعتماد تلك الآبار،[٦٤] مما يظهر هواجس الملك في توفير أكبر قدر من المياه، من خلال آبار متعددة.

وعن ظروف الاشتغال بمزغان خلال تلك الفترة، فيستفاد من رسالة سابقة أن عملاً جبارًا كان يتم في مزغان لا تعيقه سوى المناوشات التي يقوم بها المغاربة من حين لآخر.[٦٥] ويبدو فعلاً أنّ المناوشات كانت تصل في بعض الأحيان إلى حدود أسوار مزغان فقد أورد ديكو دي طوريس عن إحدى الهجمات التي قتل فيها ابن حاكم مزكان لوريرو (ولما وصل لوريرو إلى باب مزكان وجده مفتوحًا لأن جميع النساء والأطفال كانوا قد خرجوا من المدينة وهم يبكون ويبحثون عن آبائهم وأزواجهم)[٦٦] ولم يكن من بدّ سوى إغلاق الأبواب دونَهم ويضيف (ولو كان المغاربة تقدموا أكثر في مطاردة- ليريرو- لدخلوا مختلطين مع السكان)،[٦٧] مما جعل انعدام الأمن في محيط القلعة يعقّد الإنجاز العادي للأشغال ويقلّص من ساعات العمل،[٦٨] الأمر نفسه الذي كان يبرر طلب جواو دي كاستيلو عمال دَوي دراية بالأشغال والحرب،[٦٩] مما حدا بالرحالة جان موكي باعتبار كل ساكنة مزكان من المحاربين، وأضاف أن محيط مزكان كان متار ترقّب وحراسة دائمين، حيث يورد في ذلك أنّ مزكان كانت بمثابة سجن حقيقي، تتم المداومة فيه من الصباح إلى المساء عبر مناوبتين من ٤٠ فارس، من الصباح إلى وسط النهار وأخرى من وسط النهار إلى المساء.[٧٠]

غير أنّه لم تكن فقط المناوشات مع المغاربة وحدها سببًا في تعقيد الأشغال، بل كان المدّ البحري أيضًا يؤثر على الأشغال بالإضافة إلى الطبيعة الصخرية للموقع التي كانت تفرض تغيير مسار الحفر من البئر إلى الخندق المحيط بالمدينة، ومن فتحة السرداب الذي ينقل

قنوات المياه إلى باب الخيانة بمزغان.[٧١] وقد قدَر كولفن طول القناة المائية بـ ١٥٠٠ خطوة.[٧٢] وقد بلغ ارتفاع فتحة السرداب ٢،٢ متر وعرضه ٣" بالموس"[٧٣]، أي ٣ "أشبار" والتي تعادل ٦٦ سنتم.[٧٤]

ويبدو أنَه إلى تاريخ ٢٧ غشت ١٥٤٧م، لم يكن قد تم إنهاء إنجاز القنوات المائية الحجرية التي تصل البئر بفتحة السرداب المؤدي للمدينة، والتي كان من المنتظر أن تنتهي أشغالها في نهاية شهر شتنبر من سنة ١٥٤٧م كما ورد في الرسالة، على أن إمداد الماء عبر السرداب يستلزم إرسال قواديس فخارية بقطر أكبر من تلك التي تم استعمالها بين البئر وقبوه،[٧٥] وأن احتمال وصول الماء إلى المدينة عبر السرداب سيكون في شهر نونبر١٥٤٧م، بعد أن تكون أرضية الخزان جاهزة لاستقبال المياه بعد تبليطها بلبنات فخارية.[٧٦] وعن الموقع الذي يصل إليه ماء القناة في القلعة، فقد أورد كولفن (أن القنوات كانت تنقل الماء إلى الجهة الغربية من الساحة بالقرب من برج سان أنطوان حيث يوجد خزان كبير).[٧٧]

خَاتِمَةٌ

يستفاد من كل ما سبق أن، الملك يوحنا الثالث حرص على تأمين مزكان مائيًا، ليس فحسب من خلال توفير خزان كبير للمياه، بل أيضًا من خلال البحث عن آبار قريبة يمكن من خلالها تزويد الخزان بالماء، كما عمل بواسطة مهندسين معروفين، ويد عاملة يتم جلبها بمواصفات مضبوطة على حفر سرداب تحت أرضي تمر من خلاله قنوات تنقل الماء إلى المدينة. كل ذلك من أجل تفادي التخلي عن مزغان، تحت ضغط حصار ذا طبيعة مائية.

ويبدو من خلال الرسائل أن إمداد المدينة من خلال قناة تحت أرضية امتد من سنة ١٥٤١م، حيث ظهرت أولى الإشارات حول الموضوع إلى سنة ١٥٤٧م، حيث تبشر الرسائل بإمكانية وصول للمياه عبر قنوات نهاية السنة نفسها. مما يعني أن إمداد القلعة بالماء أخذ بدوره ذلك الحّيز الزمني الذي أخذته مجموع التحصينات، التي أعطت الشكل النهائي للقلعة التي استطاعت الصمود أمام الهجومات الشعبية والرسمية، والتي كان أهمها الصمود أمام حصار عبد الله الغالب.

كما يظهر أن خزن المياه وحفر الخزانات، الذي كان يميز سكان دكالة في علاقتهم بالماء، أصبح أيضًا استراتيجية برتغالية، فيبدو أنه لم يتم الاقتصار على الخزان السابق الذكر وحده، بل تم العمل على حفر خزانات أخرى داخل وخارج القلعة بمحاذاة سور القلعة.

وتبدو تلك الأهمية التي كان يحظى بها خزن المياه في الخزان في التقريع الذي توصل به حاكم مزغان فرانسيسكو دو ميلو كاسترو سنة ١٧١٣م،[٧٨] بعد أن قام بتجفيف الخزان وتنظيفه دون استشارة ملك البرتغال. ممَا يعني أن الماء المخزون في الخزان يكتسي صبغة أمنية، لا يجب التصرف فيه دون استشارة الملك.

الاحالات المرجعية:

(١) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي وأزمور**، مطبعة النجاح الدار البيضاء، ١٩٨٤ ص٤٢٨.

(2) ROBERT Ricard **les travaux de Mazagan**, Sources Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal T IV, p 10,

(٣) الشبري أبو قاسم **دكالة وإيالتها جهة دكالة –عبدة تاريخ وآثار**، بسمة برينت الجديدة، الطبعة الأولى، ص. . ١.

(٤) الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء الرابع دار الرشاد، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ص١٣٧.

(٥) البكري، أبو عبيد الله، **المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ.

(٦) الإدريسي أبو عبد الله محمد، **نزهة المشتاق في اختراق التفاق وصف أفريقيا**، ص٨٤.

(٧) الشبري أبو قاسم **دكالة وإيالتها جهة دكالة –عبدة تاريخ وآثار**، مرجع سابق، ص٩٥ -٧.

(٨) كاربخال مارمول، **وصف أفريقيا**، ترجمة محمد حجي، أحمد التوفيق وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع المعارف الجديدة، الرباط ١٩٨٤، ج ٢، ص٨٥.

(٩) حول أصول اسم مزغا، انظر:

Cenivial, Henri de**, les origines de Mazagan**, source Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal, T 1934

(١٠) الشبري أبو قاسم **دكالة وإيالتها جهة دكالة –عبدة تاريخ وأثار**، مرجع سابق، ص٩٧.

(11) Cenivial Pierre De **les origines de Mazagan** d'après João de Sousa …op.cit. , page 130

(12) Goulven Joseph **la place de Mazagan sous la domination portugaise (1502_1769)** Emile la rose, Paris 1917, P.132.

(13) Cenivial Pierre De **les origines de Mazagan** d'après João de Sousa, …op.cit. p 131

(14) Goulven Joseph **la place de Mazagan sous la domination portugaise** …op.cit. ,p

(15) Ibid ,p

* أورد صاحب الاستقصا هذه الرواية نقلاً عن البرتغالي لويز مارية الاستقصاء، الجزء الخامس، مصدر سابق، ص١٤٦.

(١٦) الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، **الاستقصا أخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الخامس**، مصدر سابق، ص١٤٦.

(١٧) الشبري أبو قاسم، **دكالة وإيالتها جهة دكالة –عبدة**، مرجع سابق، ص٩٦.

* Emanuel le tortuné.

(١٨) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي وأزمور**، مرجع سابق، ١٩٨٤م، ص٤٤٢.

(١٩) مجهول **تاريخ الدول السعدية التكمدارتية**، تحقيق وتقديم عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، ط١، ص١٣.

(٢٠) الافراني، محمد الصغير بن محمد، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، مطبعة أنجي، باريس، ص٣٦.

(٢١) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي وأزمور**، مرجع سابق، ص٤٢٤.

(22) Ricard Robert, **les travaux de Mazagan**, …op.cit. ,p 9.

*أورد طوريس ديكو دي، في **تاريخ الشرفاء**، مصدر سابق، ص١٠٧، أنه كان حاكمًا لمازيغن سنة ١٩٤٦م.

(٢٤) الشبري أبو قاسم **دكالة وإيالتها جهة دكالة –عبدة** تاريخ وآثار، مرجع سابق، ص. . ١.

(٢٥) الشبري أبو قاسم، مرجع سابق، ص٩٩.

(26) Robert Ricard, Un document portugais sur la place de Mazagan au début du XVII eme siècle, Geuthner, Paris Traduction de 'Descriçào de fortaleza de Mazagao' (1615-1619) de D .Jorge de MASCARENHAS p.72.

*قال فيه الناصري، {**واتخذوا في ذلك الحصن ماجلا عظيما لخزن الماء، وهو النطفية في لسان الجيل**} **الاستقصا**ء في ذكر أخبار المغرب، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص١٢٨.

(٢٧) كاربخال، مارمول **وصف أفريقيا**، ترجمة محمد حجي وأحمد التوفيق، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، ص٧٦.

(٢٨) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي**، مرجع سابق، ص٤١٧.

(٢٩) مجهول، **تاريخ الدول السعدية التكمدارتية**، مصدر سابق، ص١٥، ص١٦.

(٣٠) طوريس، دييكو دي، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، ص١٠٩.

(٣١) الشايظمي محمد الحاجي السباعي، **تاريخ ناحية دكالة، دراسة جغرافية وتاريخية واجتماعية** من سلسلة، من سلسلة مدن وقبائل المغرب، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط ١، دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠١٠، ص١٦٧.

(٣٢) الأفراني، محمد الصغير بن محمد، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، مصدر سابق، ص٢٦٣.

(٣٣) الشايظمي محمد الحاجي السباعي، **تاريخ ناحية دكالة، دراسة جغرافية وتاريخية واجتماعية**، مرجع سابق، ص٧٩.

(٣٤) مجهول، **تاريخ الدول السعدية التكمدارتية**، مصدر سابق، ص٤٢.

(٣٥) لشايظمي محمد الحاجي السباعي، **تاريخ ناحية دكالة، دراسة جغرافية وتاريخية واجتماعية**، مرجع سابق، ص١٦٧.

(٣٦) بن الخطيب ابن قنفد أحمد القسنطيني، **أنس الفقير وعز الحقير**، عن ابن الزيات التادلي، تحقيق ونشر محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط ١٩٦٥، ص٧١.

(٣٧) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور**، مرجع سابق، ص٥٧.

(٣٨) الوزان الحسن بن محمد، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة وواقة البلاد، الرباط، الجزء الأول، ص٥٧.

(٣٩) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي**، مرجع سابق، ص٥٠.

(٤٠) الشايظمي محمد الحاجي السباعي، **تاريخ ناحية دكالة، دراسة جغرافية وتاريخية واجتماعية**، مرجع سابق، ص١٥٨.

(٤١) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي**، مرجع سابق، ص٦١.

(٤٢) نفسه، ص٦١.

(٤٣) الشايظمي محمد الحاجي السباعي، **تاريخ ناحية دكالة، دراسة جغرافية وتاريخية واجتماعية، مرجع سابق**، ص٢٢.

(٤٤) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي**، مرجع سابق، ص٥٦.

(45) Goulven joseph **la salle d'arme portugaise**, Revue France Maroc, N 7 15. Juillet 1915, p. 218.

(46) Weisgerber F. **Trois moi de compagne au Maroc** Ernest leraut, Paris 1904, PAGE 110.

(47) Cenivial, Henri de, les **origines de Mazagan**, source Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal, T 1934.

(48) Amengual Michel **voyages en Doukkala de l'antiquité à l'indépendance**, d'après Main Fernard «les ports du Maroc français «afrique orient 2013 P.30.

(٤٩) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي**، مرجع سابق، ص٦٦.

(50) Goulven joseph **la salle d'arme portugaise** …op.cit. ,p 218

(51) Moquey Jean **voyage en Afrique, Asie, Indes orientales et occidentales**…op.cit. p ٥٧

(52) JOSEF Goulven le cercle ; page 396

(53) Moquey Jean **voyage en Afrique, Asie, Indes orientales et occidentales …**op.cit. ,p٥٧

(٥٤) كاربخال ، مارمول **وصف أفريقيا**، مصدر سابق، ص٨٦.

(٥٥) دي هينين خورخي، **وصف الممالك المغربية ١٦٠٣-١٦١٣** ترجمة عبد الواحد اكمير، تقديم تركواتو بيريس دي كوثمان منشورات معهد الدراسات الإفريقية ١٩٩٧، ص١٩٦.

*حول الخندق يقول الناصري {**ثم أداروا حول السور خندقا فسيحا وجعلوا عمقه أربعة عشر شبرا بحيث بلغوا به الماء. وإذا فاض البحر ملأ بين جوانبه**} **الاستقصا، ج الرابع** ، مصدر سابق ، ص ١٣٨

(56) Castonnet Des Fosses, H **.Les portugais au Maroc**, Extr. Des Annales de l'Extrem Orient et de l'Afrique, Challamal, Paris d'après jean mocqyet p34.

العروي عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، ١٦ . ٢، ص٥٧ ٥٧

(٥٨) الشايظمي محمد الحاجي السباعي، **تاريخ ناحية دكالة**، مرجع سابق، ص١٦٦.

(59) Castries, Henri de Lettre de D .Luis de Louriero au Roi Jean III,15 décembre 1542 Sources Inédites de l'histoire du Maroc ,France T I , p 142,

(60) Goulven Joseph **la place de Mazagan sous la domination portugaise**…op.cit., p ١٤٣

(61) Castries, Henri de Lettre de D. Luis de Louriero au Roi Jean III. op, cite, p 142,

(62) Goulven Joseph **la place de Mazagan sous la domination portugaise** …op.cit. P.١٤٣ .

(63) Castries Henri de**, lettre de D. Luiz au Roi Jean III** . …op.cit. ,142

(64) ibid., page 142

(65) Ricard Robert**, Lettre de João Casthilo a jean III**, 18 juillet 1542 Sources Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal T IV, p 71,

(٦٦) طوريس، دييكو دي**، تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، ص١١.

(٦٧) نفسه، ص ١١١.

(68) Ricard Robert **les travaux de Mazagan**, …op.cit. p.10,

(69) Ricard Robert **Lettre de João Castillo a jean III**, 18 Juillet 1542 Sources Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal T IV, p 71,

(70) Moquey **Jean voyage en Afrique, Asie, Indes orientales et occidentales**, …op.cit. p. 56

(71) ص ٧٣، يوليوز ١٥٤٢، ١٨

(72) Goulven Joseph **la place de Mazagan sous la domination portugaise**, …op.cit. p١٤٦

(73) Ricard Robert **lettre de João Castillo a jean III..**op.cit., p 74

(٧٤) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي**، مرجع سابق، ص، ٧٤٢٩٣.

(75) icard Robert **Lettre Liez Leriro a Jean III**, 27 aout 1542 Sources Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal T IV p 231

(76) Ibid. p 232

(77) GOULVEN Joseph **La place Mazagan** …op. cit. page 146

(78) Goulven joseph la place Mazagan. Op, cite. P. ٣١٢ .